الإنسان فی أدب میخائیل نعیمة

میسا دهداری

طالبة دکتوراه فی جامعة آزاد الإسلامیة فرع علوم وتحقیقات، طهران، إیران.

meisadehdari@yahoo.com

الملخص

یستهدف هذا المقال الکشف عن تساؤلات نعیمة بالنسبة إلی الإنسان، من هو الإنسان وأین کان قبل أن یبصر النور علی هذه الارض؟ وکیف خلق؟ وکیف نشأ؟ وما علة حیاته ومماته وعودته للتجسد غیر مرة؟ وتساءل أیضا عن علاقة الإنسان بخالقه وحاول أن یجد الحلول لتلک التساؤلات الغامضة فی هذا الوجود. لکنه أدرک أن سر الحیاة أعمق من أن یفهمه البشر العادیون.

فتطرقنا فی هذه المقالة إلی فکرة وحدة الوجود فی کل من "مرداد"، "مذکرات الأرقش"، "همس الجفون"، "زاد المعاد"، و... وهکذا تحدثنا عن ظاهرة التقمص وکیفیة تکوینه عند نعیمة وعن أثر هذه الظاهرة فی "مرداد"، وفی قصة "لقاء"، وفی دیوان "همس الجفون" و... وهکذا تطرقنا إلی مسئلة الحیاة، والممات، والثواب، والعقاب، و... إلخ.

الکلمات الدلیلیة: الإنسان، میخائیل نعیمة، المعرفة، الله، التقمص.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المقدمة

یری نعیمة أن الإنسان قوی وقوته تصدر عما وضعه الله فیه، وما علی الإنسان، لیغدو قویا کتلک القوة الشاملة الکاملة، سوی بذل الجهد المضنی لبلوغ الحقیقة، فهذه المسألة لایرقی لها عقل أو منطق أو برهان فی أن یهتدی کل إنسان إلی النظام، بنفسه، وفی نفسه. ولکل إنسان أوانه. هذا المذهب واضح، فی کتاب "مرداد" حیث بذل نعیمة، جهده لیتخلص کل أشواقه، وأفکاره، وکتاباته السابقة، وحیث جسد فکره الغلبة النهائیة، التی هی غلبة الإنسان علی ذاته الفردیة لیتسنی له الاتحاد بالذات الکونیة.

تطرقنا فى هذه المقالة إلى فكرة وحدة الوجود فى كل من "مرداد"، "مذكرات الأرقش"، "همس الجفون"، "زاد المعاد"، و... إلخ. وهكذا تحدثنا عن ظاهرة التقمص وكيفية تكوينه عند نعيمة وعن أثر هذه الظاهرة فى "مرداد"، وفى قصة "لقاء"، وفى ديوان "همس الجفون" و... وهكذا تطرقنا إلى مسئلة الحياة، والممات، والثواب، والعقاب و... إلخ.

فحسب ما تطرقنا إليه فى هذه المقالة، نستنتج أن نعيمة ربما يريد أن يبنى الإنسان ويعطيه إيمانا بأنه معد لتاج الألوهية. فالحقيقة أن "ناسک شخروب" قد مثل مدرسة روحية، أثرت فى الأدب العربى المعاصر. لم يخل الأدب العربى من التأملات العميقة كما رأينا فى أدب نعيمة. لقد تلون هذا الأديب بالنزعة التأملية، ونتيجة التأمل الطويل انشغل بما انطوى فى أعماق نفسه من المخبآت والودائع. فالواقع أن ميخائيل نعيمة فى طليعة المفكرين العرب الذين نظروا إلى الماورائيات المرتبطة بالإنسان وبتكوينه الشامل. فيعتبر أدبه نقطة تحول فى مجرى الأدب العربى الحديث. فنسجل فى هذه المقالة أن الاتجاه الماورائى فى أدب نعيمة ذو قيمة أدبية روحية سامية، وأنه لذلک يستحق الدراسة.

حياته من الولادة حتى الوفاة

ولد ميخائيل نعيمة فى بسکنتا سنة ١٨٨٩م، قد دخل نعيمة فى طفولته مدرسة "بسکنتا". کان المنهج الدراسى فى هذه المدرسة على أنه يختار كل عامين من الطلاب المتفوقين فى الدرس والسلک، ليسافروا إلى روسيا، ثم يواصلوا دراستهم فى إحدى الأكاديميات الروحيه. وكما كان نعيمة مبرزا فى المرحلة الأولى فى بسکنتا، كذلک ظل على تفوقه فى الناصرة. وقد استطاع نعيمة بجده ودأبه وحسن سلوكه، خلال دراسته بالسمنار، أن يكسب احترام زملائه وتقديرهم، وينال رضا أساتذته وكان ناجحا كما حاله فى دار المعلمين. فحدث إضراب عام بين الطلاب فى السمنار استهدفوا من ورائه المطالبة بحرياتهم السلبية، وحقوقهم المهضومة، وقد أثار ذلک الإجراء قلق نعيمة وتفكيره، لذلک ضاق ذرعا بما آل إليه حاله فى روسيا، وود لو يؤدى الامتحان النهائى قبل موعده ليعود إلى وطنه، وقدم ملتمسا إلى إدارة السمنار بهذا الشأن، وقد أجيب إلى طلبه نظرا لما كان يتمتع من حب أساتذته، وأدى امتحانه بنجاح فى مارس من عام ١٩١١م، ثم قفل راجعا إلى لبنان فى أوائل مايو من العام نفسه. **(نعيمة، ١٩٨٧م: ٢٥)**

فلما عاد ميخائيل من روسيا عام ١٩١١م، كان يعتزم السفر إلى فرنسا ليتم دراسته، وراح يعد عدته فى أوائل سبتمبر من ذلک العام ليتم دراسة الحقوق فى السوربون، أملا فى اتخاذ المحاماة مهنة له؛ لأنها –كما كان يرى – أكثر المهن كسبا للمال ومن ثم يمكنه معاونة أسرته.

وبينما نعيمه يفكر فى مستقبله، أقبل أخوه من أمريكا لزيارة أسرته فى بسکنتا، وكانت هذه الزيارة كما يقول نعيمة «نقطة تحول عظيم فى مجرى حياتى، فقد أقنعنى أخى أن أسافر معه إلى أمريكا، وأدخل هناک جامعة من جامعاتها

الكثيرة ... وهكذا بين ليله وضحاها انصرفت أفكارى عن فرنسا إلى أمريكا وعن السوربون إلى جامعة واشنطن.» **(المصدر نفسه: ٢٨٢)**

ففى أوائل نوفمبر عام ١٩١١م وصل نعيمة فى صحبة أخيه إلى الولايات المتحدة، وفى عام ١٩١٢م التحق بجامعة واشنطن وتسجل فى فرعى الآداب والحقوق وحصل على شهادتيهما عام ١٩١٦م وما إن وصل نعيمة إلى لبنان حتى استقر فى قريته بسكنتا، حيث لازم "الشُخروب"، لأنه رأى حياة التأمل والتأليف تستدعى خلوة، ينصرف فيها بكل جوارحه عن شواغل العالم المحيطة، وينطلق مع سبحات الفكر والخيال، لذلک ابتنى لنفسه خيمة من أغصان الشجر «فى فسحة من الأرض تكتنفها الصخور العالية فى القسم الشمالى من الشُخروب»، وصار يقضى فيها سحابة نهاره، ولايغادرها إلا فى أوقات الأكل أو النوم أو استقبال الزائرين، أو مشاركة أبيه فى أعمال الزراعة بما تتحمله قدرته، وحين لاتكون لديه أعمال كتابية.

آثار نعيمة

صدر لميخائيل نعيمة أكثر من خمسة وعشرين مؤّلفاً، فى موضوعات مختلفة فكانت له القصه، والسيرة الذاتية، والمقالة الأدبية، وكتب فى النقد الأدبى والنقد الاجتماعى، وطرق فن المراسلة، والأمثال ونظم الشعر. **(السيد على، ١٩٧٤م: ١٧٣)**

الخلاص فى فكر نعيمة

إن غاية الغايات للإنسان ليس فقط أن يقدم الخير لنفسه ولغيره وليس فقط أن يرتفع عن الآلام والنكبات، والخلاص من جاذبية مشاغل الحياة الدنيا ليس بالموت والفناء. بل يمكن الحصول على هذه الغاية والإنسان مازال حياً عن طريق الأعمال الصالحة والتضحيات حتى يحصل على رضوان الخالق. (شيا، ١٩٧٩م: **٢٦٣و٢٧٠)**

غير أنه الخلاص ليس نعمة تهبط علينا، وهو ليس فعلاً مكانيكياً. بل الصحيح أنّ فعل وحركة وكفاح. والزمان كلّه فسحة للإنسان يجتازه على مراحل.

ليس الخلاص، بمفهوم نعيمة، هبة تمنح لمطلق إنسان دونما مجهود منه، بل الحقيقة أنّ الخلاص هو نتاج وتحصيل فى نهاية درب آلام وشقاء، وكفاح، وأن خميرة هذا الكفاح الأساسية هى المعرفة والوعى، حيث تصب إرادة الإنسان فى مجرى الإرادة الكلية، فيكشف بذلک إرادته وذاته وحقيقته، وتنتهى أوهام فرديته وعزلته.

الوعى الكامل يؤدى إلى الخلاص ويفضى إلى الحرية الكاملة. الخلاص إذا ارتفاع عن ظاهر الأشياء، وعن التناقض، وعن كل ما يدخل فى الزمان والمكان. إنه ارتفاع عن كل ماله وجهين ولونين، هو تجاوز الأسود والأبيض، العقلى والجسدى، المادى والروحى. (**نعيمة، ١٩٧٣م: ١٤٣و١٤٤**)

وإذا كان التعالى عن عالم المحسوسات هو الخطوة الأولى فى الخلاص فإن درجته هى الأدنى، حيث الخطوة التالية هى أن تصبح أنت والأشياء كائناً واحداً، فلا هى، هى فقط، بل أنت هى، وهى أنت فى الحقيقة. هذا الارتفاع عن الأشياء، والتوحد البالغ، هو الخلاص، من الازدواجية، من الشعور بالانفصال عن بحر الحياة اللامتناهى ومما يرافق ذلک الشعور نغص ووجع، كلما حاولنا أن نتمسک بذلک الانفصال، ونعطيه صفة الديمومة الأبدية. (**نعيمة، ١٩٨٩م: ١٣٩**)

الخلاص من الازدواجية يكون باستعادة توحدنا: «لذلک أقول لكم أيها الغربان إنكم إذا سمعتم إنسانا يقول، أنا وعرفتم أنه يعنى بذلک نفسه دون العالم، فافتحوا عينيه لعله يبصر عالماً واحداً حيث يبصر الآن عالمين. أما إذا سمعتم إنسانا يقول أنا وعرفتم أنه يعنى نفسه والغراب وكذلک كل ما فى العالم الذى لا بداية له ولا نهاية فخروا أمامه ساجدين، ذلک الإنسان – الإله.» (المصدر نفسه: **٧٨**)

فالخلاص هو الوحدة مع الأشياء، والناس، والعالم برأى نعيمة. فهذه الحالة يتمثلها فى اللغة: «المجد القائل أنا – هو؛ هو– أنا.» (**نعيمة، ١٩٩١م: ٦٨**)

فالخلاص يكون يوم تحس بأن هذا الـ"غير أنا" هو فى ذات الوقت "أنا" وتلک خطوة أخرى إلى الإمام. فإذا كان الإنسان يصبح بالخلاص: الأشياء، والعالم، فهو يصبح – بكلمة أخرى – صيغة إلهية أو ربما الإله ذاته: «ألا اعلموا أنّ هناک ليس إله وإنسان بل هناک الإله – الإنسان، والإنسان الإله.» (**المصدر نفسه: ٧٣**)

فالسؤال هنا هل يمكن تحقيق الخلاص فى دورة واحدة؟ فحسب تفكر نعيمة يمكن لنا أن نقول هناک أكثر من دورة واحدة. والخلاص لايتم فى تلک اللمحة من الزمان التى تعوّد الناس أن يدعوها عمراً. وإن هذا الذى يدعونه عمرا ليس إلا لمحة فى عمر الزمن، وهو غير كاف لتحصيل الخلاص. فهناک إذاً عدة دورات يعبرها الإنسان فى رحلة الخلاص، ويعود بعد كل دورة حاصل دورته السابقة فى هذه البذرة الصغيرة التى ندعوها الـ"أنا" والتى هى ذاتها فى كل الدروات. فلم يعد الموت تحطيما للحياة، بل أصبح استكمالا لها. فحين يحقق الإنسان الخلاص، يفنى فى الله، ويخرج من دائرة الزمان والمكان. وعلى الإجمال يمكن القول: إن نعيمة يعتبر أنّ الخلاص يتأكد، ويزداد عبر التقمص الذى يقهر الزمن والموت. عبر تجدد الولادات يزداد وعيا، وازدياد الوعى يفضى إلى الخلاص يفضى بنا إلى الوحدانية والانعتاق.

معرفة الحقيقة ووحدة الوجود

وها هو "مرداد" فى العالم وليس من العالم، لأنه بشوقه إلى الانعتاق عرف كيف يخترق غلاف الزمان ويجتاز تخوم المكان، وأراد لكل إنسان أن يتوق إلى فهم المقدس، عندما سأله الرهبان عن أبى الآباء، فدعاهم إلى التركيز فى "أناهم"، فإن عرفوها وركزوا فيها، ركزوا جميعهم فى "أنا" واحدة شاملة وهى وجود الله الذى لا وجود غيره. وهذا ما يعنى إلى أن لازمة معرفة الحقيقة الأزلية هى معرفة الإنسان.

فنجد أن أقرب الطرق إلى معرفة الله هى معرفة النفس الإنسانية.فمن الصعب فهم إيمان نعيمة بالله بدون الإيمان بالإنسان، فالله والإنسان يمثلان الحقيقة فى إيمان نعيمة «لولا إيمانى بالله لما كان إيمانى بالإنسان، ولولا إيمانى بالإنسان لما كان إيمانى بالله، فالإيمانان واحد.» **(نعيمة، ١٩٩١م: ٧٦)**

الإنسان برأيه يمتد إلى اللانهاية لأن جذوره فى الأزلية والأبدية، فقال مرداد: «تمتدوا إلى أن تلاقوا الله.» **(المصدر نفسه: ٤٦)**

هناک الواحد الذى مهما تكرر وتجزأ أبقى أبداً واحداً. وهذا ما يدل على أن تلک الـ"أنا" الذى يدعو مرداد إلى معرفتها هى واحدة وبتعبيره تتحول من"الله أنا" إلى "أنا الله" وهذا ما يشبه إلى كلام الحلاج عندما قال: «أنا الحق» فتقطع إرباً إرباً عقب هذه الكلمة الجريئة الصريحة.

ويمكن لنا أن نقول الله بهذا المعنى ظاهر فى جميع المظاهر، لكنه منزه عنها جميعا وهو غيرها. وأقرب تشبيه للأمر هو تجلى الوجه فى المرآة، فأنت ترى نفسک فى المرآة ومع ذلک فما يبدو فى المرآة هو أنت وأيضا لست أنت. وأنت موجود فى المرآة دون حلول ودون اتحاد ودون انتقال وإنما مجرد ظهور أو تجل. وبمثل هذا يتجلى الله فى المظاهر المختلفة دون أن يحل فيها أو يتحد بها أو ينتقل إليها، فهو حيث كان ولاشئ معه، وهو مازال على ما عليه كان دائما تتجلى كنوزه وأسراره فى عالم الممكنات كما تظهر صورتک متعددة فى مرايا متعددة تبدو فى كل مرآة بزاوية خاصة ووجه مختلف.

وما الوجه إلا واحد غير دنه　　　　إذا أنت عددت المرايا تعددا

(محمود، ١٩٨٦م: ٥٦)

والحدود المشاهدة هى بسب المرآيا ونوعياتها كل منها يعكس جانبا ويجلو زواية بعينها ولكن الأصل غير محدود.ركز نعيمة كما استنتجنا من نظرة مرداد، إنّ غاية الإنسان من وجوده هى التحول من المخلوق إلى الخالق. وقد انصب جهده على إبراز الإله فى الإنسان. فأهم ما فى "مرداد"، أن "الإله الجرثومة"، الإنسان، يحوى فى ذاته كل قوى الألوهة الشاملة. فحقيقة الله عند نعيمة ليست ميتافيزيقية، بل هى نظام تخضع لإرادته كل المخلوقات وإرادته كلية تقبض على

الأشياء والنفس وتيسرها. «وكل ما فى الكون مسوق ومنظم أتم التنظيم بإرادة الكلية التى لاتخطئ فى شئ ولاتسهو عن شئ.» **(نعيمة، ١٩٤٧م: ٦٢٨)**

كانت لنعيمة صلة بالبيئة الطبيعية، فتأمل فى جمالها وأسرارها وخفاياها. فهذه الصلة أدت به إلى اتخاذ الطبيعة طريقا لوصوله إلى خالقه. كان منذ حداثته يميل إلى الوحدة ليراقب الطبيعة ويفرح بكائناتها، متبهجا بأشعة الشمس المنيرة وغروبها، وبالنجوم الغامزة، وبالقمر الذى يملأ الأرجاء نورا. وقد عاشر جميع الكائنات، فشعر بالظلال السحرية التى عانقته، وقد مشت الطبيعة بأسرها لتلاقيه مهللة.

يتساءل "ناسک الشخروب" عن حقيقة نفسه، ومادة الوجود، من خلال علاقته المتينة الأصول بالطبيعة، ويحار هل من الأمواج أتت؟ أم من الشمس هبطت؟ أم من اللحن جاءت؟ كما نجده فى قصيدة "من أنت يا نفسى"، فهو يقول فى قصيدته موجّها الحيث إلى نفسه: «أية نفسى! أنت لحن فى رنّ صداه، أنت ريح ونسيم، أنت موج انت بحر، أنت برق، أنت رعد، أنت ليل، أنت فجر، أنت فضل من إله.» **(نعيمة، ١٩٨١م: ٢١)**

إن إيمان نعيمة بوحدانية الحياة واحترامها جعله ينجذب إلى أحضان الطبيعة التى نشأ فيها، وإن حبه لها هداه إلى توحده فيها، فهو كان يمضى معظم أوقاته فى "الشخروب" ويتأمل فى الطبيعة.

ونجد الأرقش أحد شخصيات آثاره فى "المذكرات" يتكلم عن حب الطبيعة والتأمل فى مظاهرها، والاستغراق فى هذا التأمل إلى درجة تذوب فيها النفس حتى تصل إلى وحدة الوجود. الأرقش يبين «أنا القسم الإنسانية الساكت وما بقى متكلمون ... أدركت حلاوة السكوت ولم يدرک المتكلمون مرارة الكلام، لذلک سكت والناس متكلمون.» **(نعيمة، ١٩٤٧م: ٣٤٩)**

يجد الأرقش السكوت مجالا للتأمل والمعرفة وهذا السكوت هو الذى دفعه إلى مناجاة شعرية هادئة عميقة يقول فيها: «يا بحر، يا مهدى ومهد الحياة، يا بحر، يا صوتى وصوت الدهور، يا بحر، يا فوارة لاتغور، يا بحر، يا قلبى وقلب الإله و... .» **(نعيمة، ١٩٨٨م: ٧١)**

الأرقش فى هذه القطعة يمثل التشابه الموجود بينه وبين الطبيعة فهما يدعوان إلى الوجود الواحد، ويعلنان عن كائن واحد، وهو الله (جل جلاله).

نجده أيضا فى "همس الجفون"، له شوق عميق إلى الاتصال بالعالم الخارجى، والولوج إليه، ويتراءى هذا الشوق من خلال إيمان كامل بوحدة الكائنات والأشياء، يقول نعيمة فى قصيدة "إلى دودة" يستصغر الناس قدرها:

لعمرک باختاه فى حياتنا　　　مراتب قدروا تفاوت أثمانٍ
مظاهرها فى الكون تبدو لناظرٍ　　　كثيرة أشكالٍ عديدة ألوان

واقنومها باقٍ من البدء واحداً تجلت بشهب أم تجلب بديدان

(نعيمة، ۱۹۸۱م: ۸۶)

فهو يرى أن هناک وحدة وجودية، موجودة بين الدود والإنسان، وهو يدرک هذه الأسرارعن طريق قلبه لا عقله، هذه الفكرة أيضاً موجودة فى قصيدة "من أنت يا نفسى" كما أسلفنا، حين يحس بصلة عميقة بين نفسه وبين أمواج البحر، ويحس الإحساس نفسه إزاء الرعد والبرق فى السحب. فيشعر أنه يتحد مع كل هذه المظاهر الطبيعية اتحاداً وجودياً كاملاً، وهو اتحاد تتجلى فيه أضواء الذات الإلهية.

كذلک يرى أن الله والعالم شئ واحد، فإنه يشهد بأن تلک المظاهر، ظواهر لحقيقة واحدة، هى حقيقة الذات الإلهية التى تتجلى فيه، وفى صوره وأشكاله المختلفة، كما نرى فى قصيدة الابتهالات:

كحّل اللهم عينى، بشعاع من ضياک، كى تراک:

فى جميع الخلق، فى دود القبور، فى نسور الجو ...

(المصدر نفسه: ۳۵-۳۶)

فنعيمة يرى حلول الله فى خلقه كله، لا خارجا عنهم بل فيهم وفى عليهم ودنيهم. هكذا نرى الله فى كل شئ، حتى فى المتناقضات التى يظن المرء أنها على طرفى نقيض لا جسر بينهما. انطلاقاً من هذا الإيمان الذى يوحد بين الكائنات والأشياء ويمزج بينها، نجد أن إنسان نعيمة يرى نفسه فى كل كائن أو مظهر من مظاهر الطبيعة البادية أمام ناظريه. تتفرع سائر آراء نعيمة، وفكرته التقمصية، والإنسانية، والإلهية، والطبيعية عن هذه النقطة الأساسية، فما دام الوجود كله واحدا غير منفصل فليس هناک إله، وإنسان، فالله هو نحن ونحن الله لأننا منه الجسد، وهو فينا الروح. وفى هذا يقول: «كما أنّ بزرة الأرز الصغيرة تنطوى كل أسرار الأرزة الكبيرة التى ولدتها. هكذا انطوت فيكم كل أمجاد القدرة التى بعثتكم من اللاوجود إلى الوجود. فأنتم سرمديون كالقدرة التى من رحمها انبثقتم، وفيكم كل أسرارها.» **(نعيمة، ۱۹۸۶م: ۸۷)** فهكذا نرى أن الوجود عند نعيمة، كله وحدة متماسكة، مترابطة الأطراف، لا انفصال لها ولا تجزئة، ولا حدود. تلک الأجزاء، الحقيقة الكبرى التى ندعوها الوجود، أو الحياة، أو الطبيعة، بالتالى ندعوها "الله" الأزلى الأبدى غير المحدود. فالله هو الوجود، والوجود هو الله. هذه هى حقائق الحياة التى تركز عليها فلسفة نعيمة "وحدة الوجود" أو "وحدة الإنسانية" التى يشترک فيها الإنسان بألوهية الخالق، كما يجعل له شركة فى كل ما فى الوجود. وهكذا يمضى نعيمة متتبعاً مظاهر الطبيعة من حوله مازجا بينه وبين نفسه بما يوحى بأنها ليست إلا صدى.

فلسفة الموت عند نعيمة

يعرف نعيمة الموت على طريقه قائلاً: «لو ... كان الموت تلاشيا واضمحلالا كما يتوهم أكثر الناس، لكان للحياة أن تتلاشى وتضمحل من زمان، ولكنها تتجدد بالموت، ولأنها تتجدد بالموت، فالموت ليس النهاية التى تتوهم، بل هو درب من دروب الحياة. الموت درب من دروب الحياة ولا نهاية للحياة.»

هذا هو الرأى الغالب عند نعيمة فى الموت ونراه يكرره فى مواضيع مختلفة وبطرق متنوعة، ثم يأتى الموت فيفرق بين الروح والجسد. أما الجسد فيعود إلى أصله، إلى التراب. وأما النفس فلا علم لأحد بما تصير إليه بعد مفارقة الجسم، فيصور نعيمة هذه الحالة، قائلاً فى قصيدته "أوراق الخريف":

عودى إلى حضن الثرى	وجددّى العهود
وانسى جمالا قد ذوى	ما كان لن يعود
فلاتخافى ما جرى	ولاتلومى القدرا
من قد أضاع جوهرا	يلقاه فى اللحود

(ضيف، ۱۹۸۹م: ۳۴)

فتلك سنة الحياة التى نحياها، واللحود ليست فناء، وإنما هى دورة جديدة من دورات الحياة الغير متناهية. وهو ينظر هذه الدورة بدوره قرير العين، ولايشعر نحوها بأى خوف، بل يملؤه الأمل بأنه يستخلص من ثياب حياته وهمومها وأحلامها، ويستقبل حياة جديدة ... . فهو ينظر إلى الموت وكأنه وقت الخلاص أو وقت التحرر من سجن الطين أو سجن الجسد.

الحياة والموت مسألة شغلت تفكير ميخائيل نعيمة منذ حداثته: ما هى الحياة؟ وماذا بعد الموت؟ وهل من حيوات أخرى بعد هذه الحياة؟

كلها مسائل كانت تقلق راحة "ناسک الشخروب" إلى أن التقى يوما بشاب إسكتلندى فى أمريكا، اسمه "بل"، فجرى بينهما حديث عن التقمص، ولم يكن نعيمة قد سمع بالتقمص من قبل، على حدّ قوله، أما "بل" فقد شرح له ذلک بأن: «كل من يموت يعود بعد فترة من الزمن فيولد من جديد كما تفعل الحبة بالتّمام، فهى تموت لتولد حبّة من جديد.» **(نعيمة، ۱۹۸۷م: ۴۶)**

يقوم إيمان نعيمة بوجود حياة بعد الموت، على فكرة العودة إلى التجسد "التقمص"، فيجب هنا أن نقوم بتعريف التقمص وما هو معنى التقمص؟

معنى التقمص أنّ كل من يموت يعود بعد فترة زمنية فيولد من جديد. فهذا ليس بمعنى أنّ كل من يموت يعود فى مثل جسده وظروفه التى كان فيها، لا بل يولد فى جسد جديد يهيأ له حسبما تقتضيه أعماله واستعداداته وعلاقاته التى حملها معه عند الموت من حياته. فنجد هذه الفكرة فى كتاب لقاء التى نتطرق إليه فى التالى.

هكذا بدأ نعيمة يؤمن بأنّ الموت الذى يفاجئ الإنسان، إنّما هو دعوة إلى حياة جديدة، من هذا قوله: «أنا سأموت، وكل حى على وجه البسيطة سيموت، والأرض ستموت، والنجوم ستموت، وما من شئ على الإطلاق إلا سيأتيه يوم يتحول فيه شيئاً آخر، وتبقى البوتقة العجيبة التى فيها تنصهر الأشياء القديمة، وتولد منها الأشياء الجديدة، وحدها التى لاتموت.» **(المصدر نفسه: ٨٢-٩١)**

فأصبح بعد اعتناقه عقيدة التقمص، لم يعد يحزن على الموتى حزن الناس العاديين، بل أصبح على يقين أنه سيلقاهم يوماً، كما شعر بالتمام عند وفاة أخيه، الذى قال عن موته: إنه كان «حلقة فى سلسلة حياته، وسلسلة حياته لم تبدئ ساعة ولد، ولم تنقطع ساعة مات.» **(المصدر نفسه: ٩٦)**

مرداد والحياة والموت

الإنسان بمنظور، نعيمة لايمكن أن ينتهى بلمحة بصر، وإذا كان جسده ينحل بعد الموت إلى التراب، فلكى تكتمل روحه مسيرتها فى جسد آخر نحو ما يسميه "اللانهاية" كما يظهر فى قوله: «لاتستطيع الشجرة أن تمتد بأغصانها أبعد من مدى جذورها، أما الإنسان فيمتد إلى اللانهاية لأن جذوره فى الأزلية والأبدية.» **(نعيمة، ١٩٩١م: ٩١)**

فالإنسان إذا خلق يبقى ويستمر، والله، الذى أنعم على هذا الإنسان بخلقه على صورته ومثاله، جعله لايعرف العدم، وحتى ولو تعرض جسده للانحلال لأن الانحلال، فى رأى نعيمة، ملازم للنمو، والاثنان معا يتعاونان على استمرارية البشرية. إذا ليس للحياة حدود فى نظر نعيمة، والموت ليس نهاية وخاتمة للحياة لأن سبيل الموت والحياة واحد. ويلمح نعيمة إلى أن الحياة قد لاتستفيق فى الإنسان بعد موته مباشرة، وقد تتطلب وقتا لتنضج أكثر، فالبذرة لاتحول إلى ثمرة بين ليلة وضحاها «فمن البذور ما يبقى دفينا فى التراب سنة بعد سنة، ولكنه سرعان ما يتململ إلى الحياة حالما تتاح له ظروف مؤاتية.» **(نعيمة، ١٩٤٧م: ٢١٩)**

إذا لا داع للخوف من الموت برأى نعيمة، لأنه ليس إلا وسيلة، للعودة مجددا إلى حالة أفضل، واللحد الذى يغمر الإنسان ساعة موته ليس بعيدا عن المهد، الذى يستقبله لدى عودته، والعالم كله فى رأى نعيمة، عالم مهود. وفى هذه المرحلة، يتحول الإنسان الميت إلى نور تميزه العين المجردة، إلى ظل حاضر وغير مرئى، فشكل الإنسان وظله لايندثران بل يتحولان ويتبدلان.

يشبه نعيمة ظل الإنسان بظل الأرزة، التى تتعرض للتحولات، فظلها وهى تزين الغابة ليس كظلها وهى تنتصب عموداً فى هيكل، وظل الأرزة فى الشمس يتميز كذلک عن ظلها فى ضوء القمر، ومع ذلک ورغم كل التبدل فى أحوالها، «تبقى أرزة وإن أنكرتها أخواتها اللواتى كانت وإياهن فى الغابة.» (**نعيمة، ۱۹۹۱م: ۱۵۵**)

هكذا الإنسان، يمثل أدوارا مختلفة بين دورات الحياة والموت، شكله وظله يرافقانه فى تحولاته، وهو يبقى الإنسان ذاته ويقول مرداد "لهامبال": ولإن والدک اليوم فى نور ما تعودته عيناک، وفى شكل لاتستطيع أن تميزه، وتقول إن أباک غير موجود، ولكن ذات الإنسان المحسوسة، مهما تبدلت أشكالها، وكيفما تقلبت أحوالها، «وستبقى كذلک إلى أن تتلاشى فى ذات الإنسان الإلهية.» (**المصدر نفسه: ۱۵۵–۱۵۶**)

فالموت إذا ضرورة الإنسان كى ينتقل من مرحلة إلى أخرى، وهو يستمر فى التنقل من جسد إلى آخر إلى أن يتلاشى فى الله.

الحياة والموت فى لقاء

قصة "لقاء" لنعيمة، هى أول قصة طويلة كاملة له. يقدم فى هذا الكتاب التفكير التقمصى، والاتجاه التقمصى هو الذى يملأ جو القصة يسيطر على أهم مواقفها، وعلى خاتمتها.

يدور موضوع "لقاء" حول فنان بارع جئ به ليعرف فى حفلة خطوبة ابنة سليم الكروم صاحب الفندق، فسحرت به، وسحر هو بجمالها. ولكن لم يتصارحا بشئ من حبهما، وإن شعر كل منهما بأنه يتمم الآخر. ولم تكن ولادتهما الأولى على الأرض، بل سبقتها ولادة أخرى قبل آلاف من السنين، وكانت ابنة صاحب الفندق هذه بنت أمير حينذاک وليوناردو عند والدها. وكان يعزف على شبابته، وقد تحابا منذ ذلک الوقت ثم ماتا قبل أن يحققا حبهما الشديد، فعادا فى هذه المرة ليحققاه، لكنهما فشلا ثانية وقضايا قبل تحقيق أحلامهما.

وهذه هو موجز القصة فإن نعيمة ذو هدف وعقيدة، فهو لايكتب بلاغاية، وأن غايته فى هذه القصة ليست سوى توكيد النظرية التقمصية. (**الناعورى، ۱۹۶۷م: ۱۵۹**)

القائلة أن الأرواح تظل تنتقل على مدار الزمان من جسد إلى جسد، ساعية فى كل ولادة جديدة إلى تحقيق كل ما يمكن من الكمال الإنسانى. هذه النظرية أوقع فى النفس من سواها، لذلک نطمئن إليها، ونرى فيها التعزية والأمل، والبقاء المتجدد المفضى إلى الكمال، إلى الله. (صيدح، ۱۹۶۴م: ۲۴۶)

مسألة الثواب والعقاب

إنّ تناول نعيمة للفكرة التقمصية والحياة والموت جعلته يتساءل عن مبدأ الثواب والعقاب المستمد ومواهبه وميوله وعلاقاته، وكيف يرجع إليه كل ما يقوم به من أفعال وأقوال؟ هذا المبدأ يقضى «بأن تحصد ما تزرع. فمن زرع الزوان حصد الزوان ومن زرع القمح حصد القمح، والخير بالخير والشر بالشر.» **(غوش، ج٨، ١٩٩٩م: ٨)**

قد حلّت فكرة العودة إلى الحياة مشكلة الموت عند نعيمة كما يقول: «ما يصيبنى من لذة وألم هو حصاد ما أزرعه فى هذه الحياة وما زرعته فى حيوات سابقات من بذور صالحة أو طالحة. وذلک هو العدل كل العدل: أن يكون ثوابى فى يدى، فلا أعاقب الله، ولا الدهر ولا الطبيعة، ولا أى إنسان فى ما يصيبنى من وجع. فأنا قضاء نفسى، وأنا قدرها، وأنا السبب الأول والأخير. يقوم الإسلام على نظام الثواب والعقاب.وهذا يعنى إلى أنّ النظام الحاكم فى الكون، نظام عادل يعاقب كل من يخرج عن الطريق السوى، فالناس يجعلون الأوجاع لأنفسهم بأعمال يعلمونها أو بأفكار يفكرونها، أو بشهوات يشتهونها.

فيؤمن نعيمة بالنظام الذى يحكم الثواب والعقاب فى الوجود، ويذكر أن هذا النظام هو ما عبر عنه الإنجيل بقوله: «كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم بهم.» **(السيد، لاتا: ٣٢٢)**

وهذا منطق سوى يتفق عليه العقلاء من الناس، فمن الإنصاف والعدالة أن يكون الجزاء من جنس العمل، فالخير جزاء الخير، والشر عقاب الشر.

يفسر نعيمة نظام الثواب والعقاب بما يتفق مع عقيدته الأساسية التى تقوم على عماد وحدة الوجود والتقمص، فحسب هذه العقيدة ليس بلازم أن يثاب الإنسان أو يعاقب من جزاء عمل ارتكبه هو، لأنه يعتقد فى كثير من الأحيان أن تنزل الكوارث والأمراض بإنسان برئ لم يدنس الاثم حياته، لم يكن بسبب وقوع الخير والشر أو الثواب والعقاب فى هذه الحياة فإنهما قد يكونان نتيجتين لأعمال النفس البشرية فى حياتها لأعمال الحاضرة، أو يكونان نتيجتين لأعمالها السابقة فى حيواتها الماضية، حيث إنها ما تزال تتقلب فى أجسام متباينة الهيئة والصورة، عبر أحقاب طويلة، حتى تتطهر وتصفو تماما من الشوائب المادية، ثم تعود إلى مصدرها الأبدى، وهو الذات الكبرى لتتحد بها.

فليس من الضرورى دائما أن يكون نزول الألم بالإنسان عقابا له على ما إقترف من جرائم وآثام قد يكون فى بعض الأحيان تجربة أو امتحانا لإيمانه بعد ذلک النظام وثباته. وهذا الامتحان تفرضه على الممتحن ارادة غير ارادته. إلا أنها ارادة تعرف أن هذا الإنسان أو ذاک أصبح أهلاً لأن يمتحن الامتحان النهايى. وهذا ما يبدو بوضوح فى مسرحية أيوب، التى نتطرق إليها فى ما بعد.

أيوب

نقرأ فی مسرحية أيوب أنّ نزول الكوارث والأمراض به لم تكن بسبب ما اجترح من سيئات وشرور، فقد كان خيراً، باراً، تقياً، ومن ثمّ فإن ابتلاءه بهلاک أمواله وممتلكاته، وموت أبنائه وبناته، وسقم جسمه وتقرحه، إنما كان امتحاناً لصلابة ارادته وقوة إيمانه بالعدل الإلهی. فأيوب عندما اختبر بنهب البقر، واحتراق الغنم والغلمان، ونهب الإبل وقتل الغلمان، وموت أولاده. حينذاک شق ردائه ثم جثی علی ركبتيه وقبّل الأرض متمتماً قائلاً: «عرياناً خرجت ... وعرياناً أعود ... . الربّ أعطی، والربّ أخذ، فليكن اسم الربّ مباركاً.» **(نعيمة، ١٩٨٨م: ٧٣)**

فنجد أنّ أيوب نجح فی هذا الامتحان بصبره علی الآلام، فالصبر مفتاح المعرفة. أيوب رجل مصفّی، وقد صفته خبرته الطويلة فی خلال أعمار كثيرة عاشها علی الأرض. فبات يعرف أنّ كل ما تعطيه الأرض تستردُهُ الأرض. ويعرف أن هذه المعرفة هی وحدها الجوهرة الثمينة التی يكسبها من حياته علی الأرض ولاتستردها منه الأرض.

دروب

يعتقد نعيمة فی "دروب" أن ليس له أن يشكو من الله، أو من القدر، أو من أی إنسان آخر بل عليه أن يراقب نفسه، وكلّ ما يصدر عنها من أقوال، وأفعال ونيات، لذا نری نعيمة يقول: «ما من كلمة أو حركة، وما من نية أو شهوة، وما من فكرة أو نظرة إلا ونتائجها مرتبطة بها ارتباط النور والحرارة بالنار. وما يأتيک من خير أو شر ليس سوی نتيجة لازمة لما تقوله وتفعله، وما تفكره وتتخيله عن وعی منک أو عن غير وعی. ومهما حاولت أن تهرب من تلک النتيجة فهی لاحقة بک بل لا محالة مهما تباعد بها الزمان.» **(نعيمة، ١٩٦٣م: ١١٩-١٢٠)**

فحسب هذا نعلم أن كل ما نعمله له نتاج فی حياتنا بعد الموت ينبغی علينا أن نطبق قانون الزرع والحصاد. لأنه قانون إلهی، يحكم بالعدل. وإن أقصی ما نحاسب عليه هو أن نزرع بضمير حی، ونيات نقية.

النتيجة

يشبه نعيمة الأعمال والأقوال، والنيات بالنساء اللواتی يحبلن ويلدن فإن حبل العمل الصالح بالعمل الصالح ولد عملاً صالحاً. وإن حبل الفساد بالفساد ولد فساداً. فنجد أن هذا النظام لايخطئ فی أحكامه، ولايقبل الزلل، أو الانحراف أو الخلل، فالخلل يعنی التفككف والتفكک ينتج الفوضی. الفوضی هی أن نزرع بلوطة فتنبت وردة، أوحبة قمح فتنبت وردة، وأن تطلع الشمس من المغرب، ويغيب القمر من المشرق.

هذا النظام مسلم به فی إطار جميع الظواهر الطبيعية. وكل قوی الطبيعة الفيزيقية والعقلية تخضع له، فكل حادثة تمثل طاقة منظورة تعمل فی تناسق مع قانون السبب والنتيجة. النظام الكونی ممييز بعد له، وثبوته وصرامته. يقول نعيمة «فی الكون نظام واحد ثابت لايتغير ولايتبدل. ومن ميراث ثباته أنه يتمم نفسه بنفسه. فهو الحاكم والمحكمة. وهو يصدر الحكم فالحال، وهذا النظام يشمل كل ما فی الكون من الأنظمة. فهی ضمنه لا خارجة عنه، تتكيف به ولايتكيف بها.»

(نعيمة، ۱۹۸۹م: ۳۲) فهذا النظام يعنى أن كل يجرى على الإنسان ليس إلا صدى أعماله ونياته وأفكاره السلبية الإيجابية الذى يرتكبها خلال حيواته المتعددة حتى أن يتلاشى فى الذات الأزلى.

المصادر والمراجع

إبراهيم، السيد على. ۱۹۷۴م. أعلام الشعر والأدب. بيروت: دار منشورات أحمد.

الأشتر، عبدالكريم. ۱۹۶۵م. فنون النثر الهجرى. ج۸. لبنان: دار الفكر الحديث.

بدوى، عبدالرحمن. لاتا. الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى. بيروت: دار القلم بيروت.

بديع ابو فاضل، ربيعة. لاتا. الفكر الدينى عند أدباء المهجر. ج۲. بيروت: دار الجيل بيروت.

خفاجى، عبدالمنعم. ۱۹۸۶م. دراسات فى الأدب العربى ومدارسه. ج۲. بيروت: دار الكتاب اللبنانى.

السيد، شفيع. ۱۹۷۲م. ميخائيل نعيمة منهجه فى الأدب واتجاهه فى النقد. القاهرة: عالم الكتب القاهرة.

الشعراوى، محمد. ۱۹۸۵م. الحياة والموت. دار أخبار اليوم.

ضيف، شوقى. ۱۹۸۹م. دراسات فى الشعر العربى المعاصر. القاهرة: دار المعارف مصر.

غوش، قيس. ۱۹۹۹م. ميخائيل نعيمة الأديب العملاق: الطبيعة فى أدب ميخائيل نعيمة. الطبعة الأولى. بيروت: الأشرفية.

ــــــــــ ۱۹۹۹م. الإنسان الماورائى عند ميخائيل نعيمة. الطبعة الأولى. بيروت: الاشرفية.

الفاخورى، حنا. ۱۹۸۶م. تاريخ الأدب العربى. بيروت: دار الجيل.

ــــــــــ ۱۹۸۶م. الجامع فى تاريخ الأدب العربى: الأدب الحديث. بيروت: دار الجيل.

ــــــــــ ۱۹۸۶م. الموجز فى الأدب العربى وتاريخه. بيروت: دار الجيل.

نعيمة، ميخائيل. ۱۹۸۹م. آباء وبنون. بيروت: مؤسسة نوفل.

ــــــــــ ۱۹۶۶م. أبعد من موسكو وواشنطن، بيروت: دار صادر.

ــــــــــ ۱۹۹۷م. أبوبطة. بيروت: مؤسسة نوفل.

ــــــــــ ۱۹۹۹م. أكابر. بيروت: مؤسسة نوفل.

ــــــــــ ۱۹۷۳م. ابن آدم. بيروت: مؤسسة نوفل.

ــــــــــ ۱۹۸۸م. أيوب. بيروت: مؤسسة نوفل.

ــــــــــ ۱۹۶۶م. البيادر. بيروت: دار صادر.

ـــــــــــــ ۱۹۸۷م. سبعون: المرحلة الأولى والثانية والثالثة. بيروت: مؤسسة نوفل.

ـــــــــــــ ۱۹۸۶م. صوت العالم. بيروت: مؤسسة نوفل.

ـــــــــــــ ۱۹۷۱م. غربال. الطبعة التاسعة. بيروت: مؤسسة نوفل.

ـــــــــــــ ۱۹۸۸م. فی غربال الجديد. الطبعة الرابعة. بيروت: مؤسسة نوفل.

ـــــــــــــ ۱۹۴۷م. مجموعة الكاملة. بيروت: دار العلم للملايين.

ـــــــــــــ ۱۹۸۹م. مراحل. بيروت: مؤسسة نوفل.

ـــــــــــــ ۱۹۹۱م. مرداد. بيروت: مؤسسة نوفل.

نجم، محمد يوسف. ۱۹۶۷م. الشعر العربی فی المهجر. بيروت: دار الثقافة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی